

العدد الثاني

شباط (فبراير) ١٩٥٤

السنة الثانية

No. 2 - Février 1954

2ème Année

الآداب

مجلة شهرية تعنى بـ «بؤون الفكر»

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب. ١٠٨٥ - تلفون ٢٣٠١

AL-ĀDĀB : REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. : 23 - 01

أصحاب الامتياز
خير التعلبيكي - شهيل ادرين - بروج عمان

المدير المسؤؤل : بروج عمان
رئيس التحرير : الدكتور شهيل ادرين

Directeur : BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRIS

القديم والجديد من الشعر :

« قد تختلف المقامات والازمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في غيره، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجد الشعراء الحدائق تقابل كل زمان بما استجد فيه . »

لقد عرفوا الذكاء بانه القدرة على التكيف مع المواقف الجديدة ، وكلنا يدرك ان الشخص الذكي هو الذي لا نجد لديه الصلابة والجمود اللذين نجدهما لدى الكائن الجامد ، وانما نجد لديه تلك المرونة وتلك القدرة

على التغيير التي تسم الحياة في جوهرها . حتى ان بعض العلماء يفسرون الصلة بين الذكاء وكثرة تلافيف الدماغ بان المؤثر الذي يقع

على الانسان ذي التلافيف الدماغية الكثيرة ، لا يجتاز عدداً من الطرق قليلاً ، وانما يجتاز التواءات ومنعطفات عديدة تجعل من استجاباته استجابات فيها مجال لحلول كثيرة غنية . ويذهب برغسون الى أبعد من هذا ، فيفسر ظاهرة الضحك نفسها على أساس هذه المرونة والليونة في الاستجابة . ويرى ان ما يضحكنا هو ان نرى الكائن الحي المرن يتلبس بظهر الكائن الجامد الارن ويفقد المرونة التي هي جوهره . وتتجلى لنا فكرة برغسون هذه واضحة ، وتتجلى لنا الصلة عامة بين الحياة والمرونة والتكيف إذا حاولنا ان نفهم معه لم يضحك احدنا من وجه قبيح مشوه ، او من شخص احسب او .. اننا إذ نضحك من هؤلاء نضحك من تصلب ايضاً حل فيهم محل المرونة ، كأننا نحيل اليها انهم قصدوا الى وضعهم الجسدي قصداً ، فحادوا عن المرونة ووقعوا في تجرد الهيمه .

لا مجال لتعدد العوامل التي تدعو الى نفاذ القدرة على الابداع . ولا يهنا هنا ان تقوم ببحث نفسي تحليلي للابداع ومقوماته . وما يزيد هو ان نس المشكلة واقعياً ، لا على نحو مجرد ، فنبحث في مقومات الابداع في المرحلة التي تجتازها بلادنا العربية اليوم . ذلك ان جميع العوامل التي تدعو الى غنى الابداع او فقره ، مردها في نهاية الامر ، في نظرنا ، الى مبلغ القدرة على التكيف مع الاوضاع الجديدة التي يجتازها المجتمع . والمبدع هو من استطاع ان يتألف مع الجو الجديد الذي

يمر به مجتمعه ، ويدرك ما في هواء المجتمع من نوازع وتطلعات وحاجات يجيب هو عليها ، فيخلق بذلك معاني جديدة بأن تسمى جديدة لأن فيها عقب التطور الاجتماعي الجديد

الابداع الذي يحتاج اليه

بقلم عبدالله عبدالدايم

أوليس الابداع هو الحرية عينها ؟ أفلا يعني ان يتحرر الكاتب والمفكر من اساليب التفكير التي تعلمتها واعتادها ، كانت تلي حاجة فترة مضت ومرحلة تجاوزها المجتمع ، وغدت بعيدة عن ان تقي بمتطلبات الوضع الاجتماعي الجديد ؟ أليس الجذب في المحافظة على أساليب يلدّها المفكر أحياناً وينساق في منحدرها السهل ومنزلتها الممهّد ، لانه ألفها وطالت عشرته لها ، فعدا سيرها وكانت لفكره سداً يحول بينه وبين الانطلاق الحر ؟

إلى ما يقرب من هذا يذهب ابن رشيق في عمدته حين يقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى ما كان قبله . »
والى مثله ايضاً يذهب عبدالكريم بن ابراهيم في حديثه عن

« ألا يبدو لكم الاحدب كرجل ساءت وقفته ؟ فكأن ظهره قد تعود هذا الانحناء السيء وداوم على هذه العادة نتيجة عناد مادي ، اي نتيجة تصلب .. حاولوا ان تنظروا بالاعين فقط ، لا تفكرون ولا تناقشون ، وأحوا ما اكتسبتموه ، واجتثوا عن الانطباع البسيط المباشر الاول . ألا ترون حينئذ مشهداً من هذا النوع ؛ مشهد رجل أراد ان يتصلب على وضع ما ، وان يجعل جسمه إن صح التعبير ؟ » :

قضت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص ان يُصغعا وكأنما صُفعت قفاه مرة واحسّ ثانية لها فتجمعا ولن نعرض للامثلة الحسبة الكثيرة التي أوردها برغسون للتدليل على فكرته هذه ، ففكرة رد المضحك الى كل ما حلت فيه صلابة المادة ، فجمد حيث ينبغي اللين ، وتصلب حيث تجب المرونة ...

وحسبنا اذا اردنا ان نزيد في اظهار هذه الصلة القائمة بين الحياة والمرونة ، بين الذكاء والتكيف ، ان نذكر باحوال الشذوذ والمرض النفسي وألا ننسى ان جميع الامراض النفسية قائمه على اساس هذا التصلب في وظائف النفس ، على أفكار ثابتة يقف عندها المريض فتسيطر على حياته كلها ، ويجدها أينما توجه ويجدها من حوله في كل حركة من حركاته ... وما الاوهام المسيطرة وما الهذيان وما الـ *Asthénie* وما البارانويا وما الفصام *Schizophrénie* إلا حالات من التصلب في تيار النفس ، تسيطر فيها على المريض رؤى وأفكار ونزعات لا يستطيع ردها ، وتفرض وجودها عليه ... وهل تعني « العقدة النفسية » غير هذا التصلب والتعقد والانجذاب الجامد الى محور لا يتجاوزه الانسان ؟ وهلا يرجع « فرويد *Freud* » وصحبه اكثر انواع الاضطرابات والمرض الى الوقوف عند مرحلة من التطور النفسي كان على الشخص ان يجاوزها ، والى تثبت على اطوار من الحياة الجنسية والعاطفية يمر بها الانسان السليم ليرقى الى غيرها ، ويقف عندها المريض او يعود اليها ، مراوحاً في مكانه او متقدماً الى وراء ؟

إن جميع ما ذكرنا من أمثلة توضح إذا قيام الصلة الوثيقة بين التكيف والوضع السليم ، بين التكيف والذكاء ، بين التكيف والحياة ... فماء الحياة لا يعرف الركود والا غداً أسناً وموطناً للأوباء ... والتوقف لا معنى له في لغة الحياة ، وكل توقف تراجع ، والذكي من عرف ان يتكيف مع الظروف

المتجددة ومع المواقف والمشكلات الطارئة ؛ والسليم السوي من جاوز كل طور الى ما يليه ، ولم يقف حيث ينبغي ان يسير ، ولم يتصلب حيث ينبغي ان يسيل .

وإذا كان الابداع اقوى صور الذكاء وأرفع اشكال الحياة الدافقة ، فحريّ به إذا ان يكون قدرة على التكيف مع متطلبات الحياة ، وحريّ بالمفكر المبدع ألا يقف عند انماط من التفكير تجاوزها المجتمع ، وألا يراوح في مكانه والركب سائر ، وألا يمشي القهقري ، فعمله الكائن الجامد تشده الحياة إلى أمام فينجرح الى وراء ، ويعود المجتمع أمامه فينفر او يعتزل أو يمتنع .

إن الابداع كما قلنا أقوى تعبير عن الحرية .. إنه ابتعاد عن الأطر الجامدة ، عن السنن الجامد ، عن السنة والسيكون .. إنه وثبة النفس فوق ذاتها وتجاوز الذات من قيودها .. إنه ابتعاد عن الخوف ، مغامرة في عالم الجديد ، مسامرة للحياة في وثبتها التي لا تعرف الوجل ولا تخاف العقبات ..

« ما هذا يا نفسي ؟ إنه الحرية » ، هكذا قال كبير كيجرد Kirkegaard متسائلاً عن سر إبداعه .

إن الجليل المبدع هو الجليل الذي تحور من رواسب الماضي وانطلق ينشد المستقبل في حوارة . والمفكر المبدع هو الذي تحور من عاداته المستثمرة فخط لنفسه عادات تسير ما بفوح في المجتمع من روح ناعم جديد ، بدلاً من أن يظل ثابتاً على افكار ذابلة ، كانت أزاهير ، ففقدت ضوعها وكادت تنتن .

★

وبعد ، ما هو هذا الابداع الجديد الذي ينتظر من مفكر في بلادنا تنكب للجامد وانطلق مع الحي المتحرك ؟ وهل ما نجد في مجتمعنا العربي اليوم من مجالي الابداع يحقق هذا الابداع الذي عرفناه ويجعل من مفكرينا أناساً جديرين بهذا الاسم ؟

هنالك طائفة من المفكرين ، غدت قليلة ، تفهم من الابداع ضرباً من الوحي الشخصي والالهام اللدني الذي لا يغذيه اطلاع وزاد. وتعتقد ان الخلق يمكن ان يكون من عدم مناقضة المثل

اللاتيني القائل « لا شيء من لا شيء *ex nihilo nihili* » . ومن بين هذه الطائفة أولئك الذين يعتقدون ان الأمة العربية تستطيع أن تبدع قبل أن تدرك وتعي ما جاء به غيرها ، وأن عليها ان تمتاح معاني الابتكار من ذاتها ومن خصائصها . ولئن كان وراء موقف هؤلاء رغبة مشكورة في الوصول إلى شيء قومي أصيل

وفي التعرر من عبودية الغرب ، فهم ينسبون الحقيقة التي وقفنا ووقفنا عندها وهي ان الابداع ينبغي أن لا ينسى متطلبات الوضع الاجتماعي الجديد. كما أنهم خاطئون إذ يخجل إليهم ان في الاهتمام بتراث الغرب ، إذا اتصف هذا الاهتمام بالصفات التي سنينها ، تخلياً عن الاصاله وانقياداً وخضوعاً ...

« ليس المبدع من يأتي بالمعجزات أو ينتظر هبوطها ، انه من تحرر من قيود اسلوبه الذي ألفه ، وانطلق من اسار عاداته الفكرية المستشرية ، وصارع ذاته وأنانيته العقلية ، لينحدر في حياة امته ومجتمعه ، يقبس منها وحيه ، ويدرك من خلالها حقيقة المهمة التي تنتظره ، ومطالب المرحلة التاريخية التي عليه ان يحمل عبء قيادتها وتوجيهها . »

وهكذا نرى فريقاً من الكتاب يفكرون جاهلين كل شيء ، يتصل بالفكر العالمي ، ويعتقدون ان ما في عقولهم هو كل ما في العالم من أفكار ، وان ما عندهم من اجتهاد شخصي غير مزود باطلاع ومعرفة هو كل الابداع ، ويسلكون لهذا مسلكاً جريئاً جداً ، فيخوضون في كل بحث ويفكرون في كل مشكلة جاهلين بأصولها وما قيل فيها من أبحاث ، ظانين أنهم أول من يتعرض لها . ولهذا تراهم يعرفون بما لا يعرفون ويتجرأون على أكبر المشكلات فيجدون لها الحلول القاطعة في زعمهم .. إن الابداع لديهم ينقلب إلى تجاهل التجربة العالمية في كل ميدان ، وتوهم الأتيان بالجديد في مجالات قتلت درساً وبحسناً .

وإلى جانب هذه الطائفة الأولى طائفة ثانية تشعر على العكس بالانسحاق أمام الفكر الغربي فتزعم في أحضانها . غير أن ارتقاءها في أحضانها ارتقاء فقير مجذب يقتصر عن فهم هذا الفكر الغربي ولا يصل إلى شأوه ويقتصر على نوع من التلمذ أو ادعاء التلمذ على استاذ قوي دون شك ، غير ان تلميذه لا يفهم منه الا فتاناً قليلة .

وهذا الموقف الثاني كثير الذبوع ، وهو أكثر ذبوعاً من الموقف الاول . وهو أيضاً وليد العجز وليس من الابداع في شيء . إن صاحبه اشبه بمن يتكئ بجاره . فهو حين أجذب وأحمل يلمس الحصب في التحدث عن خصب غيره دون ان يعرف هذا الحصب . وما يلبث حتى يظن بعد حين أن مجرد حديثه عن غنى الآخرين ، غنى الغرب ، يمنحه الغنى . بل قد يخجل اليه أنه يشارك في إبداع هذا الذي يبدعه غيره . كمثل من يستمع الى نثر كبر فيحرك يده أحياناً كأنما يريد ان يقلد النغم الذي يعجب به ويظن بهذا انه يشارك في إحداث النغم .

ويتجلى موقف هذه الطائفة خاصة في أنهم حين يحاولون نقل فكر الغرب لا ينقلون إلا اجزاء متناثرة وأشلاء مقطعة .

فيقبسون من هنا وهناك ، ويقمشون من هنا وهناك ، ويتمظون ببعض النصف ، دون ان يدركوا النظرة الكلية الشاوية وراء هذا كله ، والمنازع العامة التي توجه هذا كله . إنهم لا يصعدون الى منبع الابداع ، ويكتفون بان يعرفوا من سطوانه الموصلة كدراً بحسبونه صفواً .

ويصيبهم من وراء هذا كله غرورٌ أيما غرور ، فيحملون على تراثهم دون ان يفقهوا منه شيئاً ، ويدعون الى تراث غيرهم دون ان يفقهوا منه شيئاً ايضاً .

ونرى هذا الموقف جلياً لدى بعض الدائنين بمذاهب سياسية غريبة . فنراهم ينقلون فتات المذاهب دون ان يفهموا متزعا ووظيفة الحقيقة . ويوهمون الناس أنهم يتبنون مذاهب ونظماً سياسية وحكومية أثبتت جداتها لدى امم حديثة ، في حين أنهم يخترمون هذه المذاهب والنظم ويقطعون منها ما يفهمون أو ما يشاؤون ، ويدعونها تلمس الحياة في بلادنا عرجاء شوهاء مقطعة الأوصال ، محرومة أحياناً من جهازها التنفسي الأصلي بل من لحمها ودمها .

ولا يعنيننا ان نستمر في هذا الحديث ، المكرور ايضاً ، عن موقفين من الابداع ، في صلته بالغرب . ويهنا ان نذكر ان كلا الموقفين موقف متصلب أرن ، لا يراعي مطالب الوضع الجديد ، ولا يعرف ان يتحرر من العبودية التي تُفرض عليه ؛ وان كلا الحلين للمشكلة حلٌ سلبي متراجع ينيء عن خوف منها وهلع ، ولا يواجهها في صراحة وإقدام .

ان الموقف السليم تجاه مشكلة الفكر الغربي ينبغي ان يكون دون شك ان نجعل من نقلنا لهذا الفكر الغربي إبداعاً وأول شروط الابداع في مثل هذا المجال ان نفهم ما ننقل فهماً كلياً جامعاً ؛ أن لا نخلق من نتف ومزق نستوردها من الغرب كما نستورد زجاجات الويسكي مخلوقاً عجيباً ندعي انه مخلوق ، ولا يثير فينا إلا الضحك ، الضحك من تجمد الحياة على هذا الشكل . فليس كل نقل اتباعاً . وإدراك ما يدعه الآخرون على حقيقته وفي قوته وأعماقه هو مجد ذاته مشاركة في الابداع ومشاركة كبرى . وهو فوق ذلك استعدادٌ لتجاوز هذا الذي أبدعه الآخرون . فمن استطاع ان يضع نفسه موضع الآخرين تماماً وان يصل الى مستوى ما أبدعوه من أفكار

انسان وصل الى شأو من ينقل عنهم وفي وسعه ان يبدع فوق ما أبدعوا كما يبدعون هم فوق ما أبدعوا . ثم إن مهمة النقل الأصلية في الابداع ان تنقل اليها الوثبة التي أحدثت الابداع عند من تنقل عنهم وان تشيع بيننا الدفقات التي ادت الى الخلق والروح المبدعة التي تثوي وراء نتائج الابداع وآثاره . إن مهمتها ان تنقل اليها الوحي الناوي وراء الأفكار لا الأفكار وحدها .

ولا يتم هذا كله إلا إذا لجأنا الى اسلوب صحيح في النقل . وهذا الاسلوب الصحيح هو الذي يعيننا الحديث عنه خاصة : أسوأ أنواع النقل ان تنقل دون ما خطة مرسومة ، وان تنقل ما يقع بين أيدينا ، وان ينقل كل كاتب ما تهديه اليه مطالعائه المبعثرة الشتيبة . فمثل هذا النقل لن يطلعنا على « الكيان » الذي ننقل عنه كاملاً ، وان يجررنا من التقاطقات الموائد بدلاً من الرجوع الى الأصول . والاسلوب الصحيح ان نبدأ بنقل أهم « كيانات الغوب » بكاملها . الاسلوب الصحيح اذا اردنا ان ننقل في مجال الفلسفة مثلاً ، ان ننقل « كيان » الفلاسفة الفكري بكامله غير مجتزأ ، ونقدم كل مؤلفات كبارهم للجهور ، غشها وسمينها . فننقل « كنت » بأسره أو « سبينوزا » بأسره ؛ أو ننقل الماركسية بكامل صورها وكتبها الأصلية ؛ أو ننقل الفن في شتى مجاله ، كاملة غير منقوصة . فخير ما نفعل ان نلجأ الى التنايب الأصلية فننقلها ؛ وخير ألف مرة ، في بادئ الأمر ، ان ننقل « كنت » كله بدلاً من ان ننقل ما كتبه بعضهم عن « كنت » ولو كان هذا الذي كتبه يدسر فهم الفيلسوف .

ولهذا الموقف الذي ندعو اليه مبررات كثيرة :

منها اننا إذ ننقل افكار الغرب بكاملها ، في مؤسساتها كاملة نقوم بجهد فكري هائل للوصول الى شأوها . إذ النقل يستلزم الفهم العميق .. وبذلك نتمكن من العلو فوقها والابداع إبداعاً يتجاوزها ..

ومننا ان من أخطر الأخطار التي تقع فيها حين ننقل نقلاً من الأفكار لا « كيانات » كاملة ، اننا نقدم فكرة مغلوطة عن المفكر الذي ننقل عنه ، فنظيره احياناً دون ما هو ، ونظيره احياناً اخرى فوق ما هو ، ونفهمه كما نريد وكلا الشئين ضار . والذي نلجأ اليه غالباً هو ان نظهر المفكر فوق ما هو ، إذ نتخير خير ما عنده ، ونعرض لآليه فكره ، دون ان

نعرض ما الى جانب هذه الآليه من نقائص كثيرة لا ينجو منها مفكر . وبهذا تتكون لدينا فكرة مغلوطة عن مفكري الغرب ، ونصورهم خيراً مما هم ، ويزداد شعورنا بالانسحاق امام الغرب ، ويخيل اليها ان هناك فارقاً هائلاً في المستوى بين بعض ترات الغرب وتراثنا ، بين بعض مفكري الغرب ومفكرينا . ولا ندرك هذه الحقيقة المنصفة وهي ان لدى كل مفكر في العالم ، مهما يكن شأوه ، بعض الافكار القليلة القوية التي تخلق سمعته وتجعل منه مبدعاً ، الى جانب طائفة كبيرة من الافكار العادية او الضعيفة . وبنتيجة جهلنا هذه الحقيقة ، بسبب اطلاعنا على لآليه الفكر وحسب ، نحقر مفكرينا وتراثنا ، حين لا نجد فيه الروعة فقط ، وإنما نجد فيه الى جانبها كثيراً من الدمامة والضعف ، وحين نظن ان هذه الظاهرة مقصورة على تراثنا . وحق لنا ان نظن ما دمنا لم نر الفكر الغربي في جميع قسماته ، واقتصرنا على رؤية قسماته البديعة . ومن هذه المبررات التي تجعلنا ندعو الى نقل « الكيانات » كاملة لا مجتزأة ، ان كثيراً من الاخطاء التي تقع فيها عندما نفكر ونناقش مسائل الفكر ونبدي حياها آراء واجتهادات مختلفة ، معتمدين على افكار الغرب في رأينا ، ترجع الى اننا لا ندرك من وجهات الفكر الغربي إلا وجهة نظر وحيدة او وجهات نظر محدودة ، ولا ندرك المشكلة في جميع جوانبها وصورها . لهذا تراثنا طرائق شتيبة ، إذ كل واحد منا يناقش المشكلة من المنظار الذي اطلع عليه لدى المفكرين الغربيين والذي اطلع عليه دون غيره .. ومن هنا نكاد لا نتفق حول فكرة او حول فهم مذهب معين سياسي او فني او فلسفي ، لأن كلاً منا ينطلق فيه حسب حظه من العلم ورتبته من الاطلاع ، ولأن الاطلاع الشامل على اوجه المشكلات الكاملة غير ميسر لنا ما دمنا لا ننقل إلا فتاتاً ولا نقرأ إلا فتاتاً .

يضاف الى هذا كله ان الموضوعات التي نتطرق لمعالجتها تأخذ شكلاً غير الشكل الذي نعرفه ، اذا ما تبسّر لنا هذا النقل لكيانات الفكر الغربي كاملة ولؤسساته المبدعة . ان تخميرنا للموضوعات لا يعود ، عند ذلك ، ذلك التخير الذي عليه اننا لا نملك عن الفكر الغربي اي ثروة سابقة منظمة ، والذي يجعلنا نكتب في اي موضوع ، دون ما نظر الى مرحلته الزمنية ، فنكتب اليوم في موضوع كتب بالأمس ، غير آبهين لما كتب ، ناظرين الى موضوعنا كأنه موضوع جديد . إذ من شأن اسلوب

النقل الذي نتحدث عنه ان يجعل امامنا زاداً فكرياً نهائياً ومهاداً ادبياً سابقاً، على اساسه نبني وننشيء موضوعاتنا، وابتداء منه نصدر في افكارنا . فما نفي 'نفني' هذا الزاد وننسج حوله حتى نبلغ به شأواً من الابداع عالياً. أما ان نهبط حيناً ونعلو حيناً ونصمت حيناً ونتكلم حيناً آخر ، وننقل عن الغرب تارة ولا ننقل تارة اخرى ، ونتحدث اليوم في موضوع حديثاً لا ندرى ما مبرر انتقائه، ونأنف من مثل هذا الحديث في الغد فهذا كله تشتت فكري وبناء في فراغ ونسج حول شيء لا نواة له ولا لجة . ان نقطة البداية في كل ما يمكن ان يقدمه المؤلف للجمهور ان يقدم لهم شيئاً يتساءلون عنه بطبيعتهم او يخلق في نفوسهم التساؤل عنه . وأول مقومات التساؤل ان تكون هنالك اجاث غدت راسخة وافكار تم نقلها كاملة، تغدو هي موضع بحث جديد مستحدث ، ومنطلق جدل ومشكلات جديدة ، ومجال حديث عنها من وجهات نظر مبتكرة وهكذا تستمر حركة الفكر متكاملة متعالية ، ويخلق تراث ويخلق كيان ..

★

وبعد ، هذه هي سبيل الابداع، في رأينا ، فيما يتصل بموقفنا من الفكر الغربي ؛ وهذه هي الطريق الوحيدة التي يمكن ان تقودنا الى تجاوز هذا الفكر الغربي والوقوف منه موقفاً مبدعاً . واثن كنا قد وقفنا عند هذه المشكلة، مشكلة النقل عن الغرب، هذه الوقفة الطويلة ، فلأنها اكبر مشكلة تواجهنا في المرحلة الحالية ، ولأن كل حديث عن الابداع لا يتعرض لها، حديث زائف يتهرب من المشكلة الاصلية . أو لم نعرف الابداع منذ البداية انه تلازم مع متطلبات الحياة الاجتماعية الجديدة وتحسس بالاتجاه الذي يتمخض عنه المجتمع ؟ أفلا نجدنا كتابنا فعلاً عن فتات من الفكر الغربي كان حرياً بهم الا يجتزئوها هذا الاجتزاء المصطنع ، وكان حرياً بهم ان يهدونا بدلاً منها عن بداية الطريق التي توصل اليها ؟ أمن الجائز ألا يكون هنالك ترتيب معين في عرض افكار الغرب على الجمهور ؟ وإن نعجب فنعجب حقاً ان نجدنا كاتب عن فكرة في قمة الفكر الاوروبي، ونحن ما زلنا غير عالمين بعد ما في اودية هذا الفكر، وأن يصعد بنا الى شاهق الفلسفة ونحن لم نر قبل ذلك ، الدروب المؤدية الى هذا الشاهق !

إن قضية الكاتب ليست قضية إمتاع ومؤانسة . انها

قضية تكمن وراءها مسؤولية جسيمة . ولا يجوز لشراعه ان يخبر دون ان يعرف ابن المسير والى أين المصير . وان كانت مسؤولية الكاتب جسيمة في كل فترة من الفترات ، فهي في هذه الفترة من حياتنا ، حيث القلق والحيرة والتشتت ، اشد ما تكون خطراً وأثقل ما تكون عبئاً . واثن حتى لأمة استقر كيانها وقوي عودها ان تتوقف في البحث وتسير فيه على غير هدى ، فلا يحق هذا لامة ما يزال بنينها ضعيفاً وما يزال جسمها هزيلاً غير قادر على ان يجول كل شيء ، حتى الفوضى والتشتت ، لصالحه وفائدته ..

★

على ان هذه المشكلة التي وقفنا عندها هذه الوقفة ليست الوحيدة التي تواجه مسألة الابداع الفكري عندنا . ولن يتسع المقام للحديث عن المشكلات الاخرى . إلا اننا نود ان نشير الى واحدة من هذه المشكلات ، لصلتها الوثيقة بالمسألة التي كنا بصدد الحديث عنها .

إن موقف كثير من مفكرينا من مشكلة النقل ذلك الموقف الذي نقدناه ، موقف من يعرض امام القراء المتفرجين قطعاً من صور مزوقة ينقلها نقلًا غير واف ، إن ذلك الموقف قد جعل من أهم أسباب عقم الابداع عندنا عقم الابداع نفسه . وقد تعجبون من تحصيل الحاصل هذا ، غير انه عندنا ذو معنى جدير بالعناية : ان انعدام الابداع ، بنتيجة وقوف اكثر مفكرينا تلك الوقفة الدليلية السطحية من الفكر الغربي ، أدى الى ظهور أدب هجين وفن هجين وفكر هجين ، بدأ جمهور المثقفين بألفونه ويسيفونه ، رغم انخراجه وضعفه ، حتى أوشك أن يصبح هذا الفكر الهجين مقياساً يحكمون عن طريقه على كل ابداع . لقد عودهم مفكرون ذلك الاسلوب من البحث والتفكير ، أسلوب الاجتزاء والنظرة العابرة السطحية ، فكاء يسري هذا الاسلوب الى نفوسهم ويكون مقياسهم الفكرية ومحاكاة لهم المنطقية على غرار وطرازه ، وكاد ينقلب الاسلوب الفاسد عندهم الى قاعدة ومبدأ ، وكاد ذلك الاسلوب من اجتزاء الفكر الغربي وإيراد النتف الفكرية المبعثرة ، يصبح سنة تتبع ، وقدوة تحذى يتبارى فيها الكتاب . وهنا يكمن الخطر كل الخطر : ان يصبح الهجين هو الاصيل ، وان يغدو الطريق المنحرف هو الطريق الأمم ، وان تتذرع بعد ذلك ، إذا ما نقد ناقد سلوكنا الذي نسلك ،

باننا نلبي رغبة الجمهور وحاجة القراء .. ونحن الذين نخلق لدى الجمهور هذه الرغبة الملتوية ، بتجربته إياها قطرة قطرة ، ونحن الذين نثنيه عن حاجته الحقيقية .. ومع ذلك ، فنحن نعتقد ان أكثرية الجمهور لم يحدث لديها بعد هذا الانحراف في تذوق الفكر ، وإن كان قد أصاب طائفة قليلة من المثقفين . ونرى على أية حال إن ارضاء الجمهور لا يكون أبداً بالهبوط الى مستواه ، وإنما يكون برفعه الى المستوى الذي نريد واعطائه أحسن الأطعمة . وواقع الجمهور يكذب دوماً زعم من يتذرعون بضعفه فيما يقدمون من نتاج ضحل وافكار وتوجيه .. انه يثبت في شئ المناسبات انه قادر على إدراك الابداع الحقيقي وتفهم الوثبة الجديدة بمجده وذوقه السليم ، وفطرته غير المشوبة . او لم تثبت الحياة السياسية في بلادنا ان فساد الجمهور راجع الى فساد القيادة ، لا العكس ، وانه إذا ما عرفت هذه القيادة حقيقة مطالبه استطاعت ان تُخرج منه الخير الكثير ، واستطاع هو ان يسبغ افكاراً يتخيلها الزعماء في البداية عصية على فهمه وإدراكه ؟

ويروق لنا ان نقارن موقف المفكر من الجمهور بموقف الراشد من الطفل . إن الشائع لدى أكثر الناس ان الاطفال لا يسبقون الادب الرائع ، وينبغي ان تقدم لهم أنماطاً ضعيفة هزيلة من الادب والخيال والاساطير تناسب ، في زعمهم ، قواهم الغضة اليافعة . غير ان الوقائع تبين ، كما بين « اناول فرانس » في مؤلفه الشيق « كتاب صديقي Le Livre De Mon Ami » ان الاطفال يجنون ذلك النوع من الادب الرخيص الذي يقال إنه صنع لهم خاصة وكتب من أجلهم ، وأنهم ، على العكس ، يهتزون للأدب الرائع ، للفكر البديع المبدع . ومثلهم الشعب : إنه لا يطلب الغذاء الفكري الفقير . وإن زعم بعض المفكرين واتهامهم إياه بتقصيره عن إدراك الفكر المبدع الحق هو في الواقع ضرب من الاضفاء projection ! أعني أنهم يرون في الجمهور ما في نفوسهم من عجز وتقصير . ان الجمهور عطش الى الابداع الحق ، وانه يعرف أن ينساق وراء من يهز أعماقه ويخاطبه بلغة الحياة ، بلغة الحقيقة ، بلغة الجد . إن الجمهور أيضاً يفهم أن الابداع يكون بالتلاؤم مع مطالب الحياة الجديدة ، يكون بسلك سبيل رصينة جدية في فهم مقتضيات المرحلة التاريخية التي تجتازها الامة . ما هو « ببعاء عقله في أذنيه » على حد تعبير شوقي . إنه يستطيع أن يرى ولكنه في حاجة

الى من يعرض أمام عينيه ما يستحق أن يُرى وما يأسر نظره وانتباهه .

وكم يضلّ اولئك الذين يقدمون للجمهور في الاذاعة وبعض المجلات ذلك النوع من الأدب الرخيص ، زاعمين انه لا يسبغ غيره . ولو سألوا هذا الجمهور لأجابهم أنه لا يسبغ شيئاً مما يدعون أنه موجه اليه وأنه يعرف ان هذا هزل ، ولأجابهم بأن المحاولات المتكررة لأفساد ذوقه وفكره ما زالت عقيمة ولم تؤت بعداً أكلفها . ولكن ما نخشاه هو ان تشر هذه المحاولات بعد لأي ، وان ينفذ ذلك الأفيون المخدر إلى عقول الجمهور ، فيستسبغ ما عود عليه ، ويفقد عنده قاعدة وأصلاً ، كما ذكرنا . وهنا تبرز مسئولية المفكرين من جديد وهنا يفهم كل منهم ان كلمة يقولها ينبغي ألا يعدها كلمة تذهب مع الريح وعبثاً ما يلبث ان يُنسى ، وإنما هي كلمة توجه وتغرس ، وقد يشر غراسها ، على شوئته ، فيغل للمجتمع بلاءً وشرأ ...

واخيراً ليس المبدع من يأتي بالمعجزات أو ينتظر هبوطها ؛ إنه من تحرر من قيود أسلوبه الذي ألفه ، وانطلق من إيسار عاداته الفكرية المستشرية ، وصارع ذاته وأنانيته العقلية ، لينخرط في حياة أمته ومجتمعه ، يقبس منها وحيه ، ويدرك من خلالها حقيقة المهمة التي تنتظره ، ومطالب المرحلة التاريخية التي عليه ان يحمل عبء قيادتها وتوجيهها . إنه لا يفكر ليحتر افكاره ويستمتع بها ويتأملها تأملاً نرجسياً مرآوياً ، ولا ليبهر بها العقول الساذجة ، ولا يشوه بفضلها ذوق الجمهور ويستدرجه الى الانحراف . إنه يعرف ان ينسب من إهاب كل هذه العادات الفكرية ، وان ينضو عنه صلابه موقفه وإحلاف نط من التفكير سيطر عليه . إنه كائن حي يسير منطق الحياة ، منطق التكيف المتجدد ؛ ويجعل من التكيف مع ما يرهص به المجتمع ويتوق الى ظهوره شرعة إبداعه وموقد ابتكاره .

إن معنى العزم على أي شيء ، فكراً كان أو عملاً ، هو كما يقول « لوسين Le Senne » ان يعي صاحبه ان الفعل الذي يصدر عنه لن يدخل العدم ، بل يدخل قيمة من القيم .

عبد الله عبد الدائم

دمشق